

الزواج علاقة شخصية و مؤسسة اجتماعية

أ. حنيفة صالح . جامعة باتنة

الملخص:

يعد الزواج من أقدم العلاقات التي تربط بين الرجل والمرأة في إطار اجتماعي وشرعي مقبول، وهو النظام الأكثر انتشارا في بناء الأسرة. ونظرا للتغيرات التي عرفتتها المجتمعات الإنسانية - خاصة في الآونة الأخيرة- بفعل انتشار الفكر العولمي بكل وسائله وخصائصه ، والتي ساهمت بقسط وفير في ترسيخ الاتجاهات الفردانية والثقافة الاستهلاكية في الأذهان ، أصبح النظام العلائقي العام بين الأشخاص يتحدد بمفاهيم المصالح والأغراض والأهواء الشخصية. ولم يكن الزواج ليقف في منأى عن هذه التيارات الجارفة . وإذا كان في المجتمعات العربية الإسلامية قديما مجالا للتصاهر وارتباط عائلتين أو عشيرتين أو جماعتين بسبب الزواج ، فإن الأمر تغير في الوقت الحالي وأصبح الزواج قضية شخصية ومغامرة فردية تخوضها كل من المرأة و الرجل على اعتبار أنه علاقة شخصية بحتة لها متطلباتها وخصائصها، ولا يمكن للمحيط الاجتماعي أن يتدخل فيها وأن يقرر مآلاتها ولا حتى أن يحدد اتجاهاتها الكبرى، وهذا ما يفسره البعض على أنه من الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى فشل الزيجات في العشرة الأخيرة .

Résumé :

Le mariage est l'un des liens les plus forts et les plus archaïques entre l'homme et la femme. C'est une relation pluridimensionnelle : personnelle, sociale, économique et culturelle... D'ailleurs c'est l'organisation la plus répandue - à travers le monde et à travers l'Histoire - dans la fondation de la famille.

Mais suite aux changements qu'a connus la vie de l'Etre humain ces dernières décennies – surtout par l'effet de la mondialisation et de la culture de consommation – l'individualisme et l'égoïsme tendent à encadrer toutes les relations et tous les mécanismes des échanges interpersonnels, entre autre le mariage comme institution fondatrice d'une nouvelle identité pour les deux partenaires en tant qu'individus et en tant que rôles sociaux.

Les sociétés arabo-musulmanes, malgré l'encadrement religieux et social qu'elles offrent à l'organisation matrimoniale, connaissent le même sort à l'instar de toutes les sociétés ailleurs, et le mariage devint ainsi une affaire personnelle entre deux individus, sinon une aventure de vie menée par l'homme et la femme loin du contrôle ou de la bienveillance de l'entourage social ; ce qui explique – d'après les uns et les autres – le taux fabuleux et inquiétant d'échec que connaît l'institution maritale dans ces sociétés et qui menace essentiellement le fondement même de la vie humaine.

مقدمة

يعتبر الزواج من العلاقات الإنسانية الوطيدة والعميقة، بل إنه يتعدى مفهوم العلاقة ليرقى إلى مفهوم أشمل و أمتن هو مفهوم العقد أو الميثاق – كما ورد في القرآن الكريم - ، فمفهوم العقد يعني وجود اتفاق إرادي بين المتعاقدين بحيث تنظم علاقاتهم أو تعاملاتهم وفق قانون معين أو نظام مختار. أما مفهوم الميثاق فهو يوحي أكثر بالالتزام الشخصي والروحي تجاه العقد الموجود.

ويعد الزواج من الظواهر الشاملة في حياة الإنسان لأنه يخص الجانب الشخصي والعائلي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والثقافي.....فهو يكاد يكون المجال الشامل لكل حياة البشرية و المنظم الأساسي لها. وككل المؤسسات الاجتماعية، لم يسلم الزواج من تأثيرات العوامل الاجتماعية والثقافية التي يعرفها العالم اليوم بفعل تيار العولمة والاتجاهات الفردانية التي تطبع حياة البشر : "ولا تقف آثار الحداثة على التكنولوجيا ووسائل النقل والاتصال، وإنما امتدت بآثارها إلى أساليب الحياة وأنماط العيش وأشكال التعامل، وحملت الموجة معها أيضا تغييرات في الحياة الفردية والاجتماعية وحتى بناء الأسرة ودور المرأة وتربية الأطفال"¹ . يقول دوسينغلي **DE SINGLY** أنه انطلاقا من

¹ إحسان الأمين، المرأة، أزمة الهوية و تحديثات المستقبل، دار الهادي، بيروت، 2001 ، ص 22 .

الستينات أو ما يسمى بـ "العصرنة الثانية" فإن : " القيم الأخلاقية استبدلت بنسبة كبيرة بقيم سيكولوجية وعلائقية. ما يهم في المجتمعات الفردانية خاصة الغربية هو أن يعيش الفرد في محيط ملائم يسمح له بتطوير هويته الخاصة ليصبح شخصا مميزا".² وهذا ما ذهب إليه ترجمان **TORDJMAN** حين حدد مفهوم الزواج المعاصر فقال : "...الزواج الحديث يضع لنفسه هدفا أساسيا لم يكن بالنسبة لأسلافنا سوى مفهوما تجريديا: السعادة. وهنا تكمن قوته".³ كما يشير ترجمان إلى أن الأزواج المعاصرين لم يعد هدفهم الأساسي من الزواج الرغبة في التناسل ، أو الحاجة للحماية ضد عوامل المرض وتقدم السن، ولكن مبتغاهم هو ترقية حميمية جنسية وعاطفية خاصة ومفضلة، وتحقيق مثالية شخصية مع ومن خلال الشريك. كما أنهم يبحثون عن توحيد قوتهم وذكائهم ضد العوامل الخارجية التي قد تؤثر عليهم. أما دوسينغلي فيرى أن مطالب الأفراد من الزواج في الوقت الحالي – أي انطلاقا من القرن العشرين – أصبحت تنحو في اتجاه ذاتي: "إن المطالبة بتفعيل الذات داخل الزوج"⁴ أصبح مركزيا،

² F.DeSingly, Le soi, le couple et la famille, Pocket, France, 2005, p12.

³ G.Tordjman, La maladie conjugale, Marabout, France, 1976, p93.

⁴ Couple.

حيث أصبح للزوج* وظيفة إشباعات الهوية.⁵ و هنا نلاحظ الاتجاه الفردي الذي اتبعته الأسرة وبالتالي الأفراد في علاقاتهم الزوجية أين المطلب الأساسي للزواج لم يعد البعد العاطفي والجنسي والاجتماعي فقط، ولكن القضية أصبحت التقاء شخصين يبحثان في الزواج عن هوية معينة مكملّة ومحددة أكثر فأكثر لهويتهما السابقة. ولهذا كان للتواصل بين الزوجين أهمية بالغة وكبيرة في تحديد مسار هذا المشروع البنائي بين الرجل والمرأة، والأمر يتعلق بحقيقة العلاقة بينهما كفردين منفصلين ومستقلين في حالة بحث عن تعريف معين وعن وجود متميز مع شخص آخر قد تمّ اختياره كشريك عمر وفق معايير معينة تختلف من شخص لآخر ومن بيئة لأخرى ومن زمن لزمان.

وإذا اتضح لنا أن الزواج قد أصبح في العصر الحالي وسيلة لتحقيق الذات على المستوى الفردي أكثر من الاجتماعي، ومطية لتأكيد الهوية عند الجنسين المرأة والرجل فإن التساؤل المشروع في هذا المقام يدور حول تحديد الجوانب والعوامل التي تجعل منه مؤسسة اجتماعية ذات طابع خاص، لأن البعد الذاتي والشخصي فيها أصبح يسمها أكثر من ذي قبل، حتى في المجتمعات العربية

⁵ F.De Singly, op cit, p92.

والإسلامية التي نجد فيها الاتجاهات الشخصية للأفراد هي التي تحدد معايير الاختيار ودوافع الإقبال على الزواج عكس ما كان يعمل به في السابق أين كان الزواج مصاهرة بين عائلتين أكثر منه ارتباطا بين شخصين. وأصبحت الأسرة مجالا للمطالبة بالحقوق أكثر من الالتزام بأداء الواجبات.

I - مفاهيم مرتبطة بالزواج:

كلمة "زواج" قد تستعمل كمفهوم بلفظين اثنين هما : الزواج والنكاح. أما الأول فقد استعمل عند العرب بمفهوم الاقتران والارتباط وهذا كما ورد في القرآن الكريم: "و إذا النفوس زوجت" (التكوير 6) بمعنى أنها اقترنت بأبدانها وبأعمالها. كما استعملت هذه الكلمة للدلالة عن اقتران الرجل بالمرأة بغرض تكوين أسرة. أما كلمة "نكاح" فقد أطلقت على العقد والوطء والضم سواء كان حسيا أو معنويا⁶. قال تعالى : "و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الروم، 21) .

⁶ محمود السيد أبو ليل، علاقة القيم الدينية بإنتاجية العامل الصناعي، الكتاب السنوي في التربية و علم النفس، المجلد السابع، دار الثقافة للطباعة و النشر، 1981، ص 90.

من هنا ندرك ونستشف أن خلق كل من المرأة والرجل كان رحمة من الله تعالى ، إذ أن اختلاف الزوجين كان بغرض السكن والسكينة وأن هذه السكينة لا يمكن أن تتحقق (كغاية من غايات الزواج) إذا لم تكن الحياة الزوجية قائمة على الحب والود والتراحم بين الطرفين . و هذا ما يشير إليه نور الدين بولحية في قوله أن هذه الآية تحديدا تبين لنا الأساسين اللذان تقوم عليهما المعاشرة الزوجية وهما: "المودة التي تربط بين الزوجين فتملاً حياتهما بالسعادة والسرور وهو مقصد من مقاصد الزواج الكبرى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {إذا نظر إليها سرته}. والرحمة التي تتعالى على المصالح الشخصية والأهواء الذاتية، فتغلب المصلحة العامة على الأذواق المتقلبة."⁷

ولعلّ أبلغ دليل على متانة هذه العلاقة قوله تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" (البقرة، 187) ، فاللباس أقرب ما يكون من الجسد وأصلح ما يكون لستر العورات وتغطية المفاتن والحماية من البرد والحرارة وكل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالإنسان. فمفهوم اللباس هنا سواء في معناه الدلالي أو الرمزي هو تعبير عن الغطاء والحماية والتقارب إن لم نقل الانصهار بين الطرفين

⁷ ن. بولحية ، العشرة الزوجية ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2006 ، ص 7 .

(أي الزوج والزوجة) دون أن توكل هذه المهمة لطرف دون الآخر ، فإن كان الرجل يضطلع بمهام الحماية الجسدية والاجتماعية للمرأة دور الحماية العاطفية وتأمين الاستقرار العلائقي والأسري.

والحياة الزوجية في معناها العميق حياة ممتدة ، أول ما تبدأ تكون مؤهلة للدوام . فغالبا إن لم نقل دائما يكون الزواج مشروع حياة يستثمر على مدى العمر، فمن النادر جدا أن يخطط أحد الزوجين لنهاية هذه العلاقة منذ البداية ، ولهذا نتحدث عن "العشرة الزوجية" كمصطلح يضاف إلى قاموس الزواج .

"العشرة"⁸ لغة تعني المخالطة و العشير المعاشر: القريب والصديق، وعشير المرأة يعني زوجها، ومعشر الرجل: أهله، والعشيرة القبيلة، والمعاشر جماعات الناس. وفي هذا السياق يمكن أن ندرج قوله تعالى: "...وعاشروهن بالمعروف... (النساء، 19) ، وهذا أبلغ دليل على أن الله أمر الرجال بحسن معاشرة النساء سواء تعلق الأمر بالمعاشرة الزوجية أي الممارسة الجنسية أو العشرة التي تنشأ من الحياة المشتركة بين الزوجين المطلوب فيها أن تقوم على المعروف والحلم والحب والمودة .

⁸ الزمخشري، لسان العرب، الجزء 4 ، ص 574 .

وعموما يمكن أن نقول أن " الزواج هو العلاقة الشرعية الوحيدة الدائمة بين الرجل والمرأة التي يباركها الله تعالى ويقرها المجتمع ويضع الضوابط والمعايير الاجتماعية المنظمة لها، والتي تتأثر بدورها بتيارات التطور الاجتماعي فيما يتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة ودور كل منهما داخل الأسرة والمجتمع. والزواج من الناحية النفسية والاجتماعية صلة شرعية تقوم على تحقيق الإشباع الجنسي وحفظ النوع في جو من السكينة والاستقرار".⁹

أما من وجهة نظر علماء الاجتماع ، فإن لوين LEWIN¹⁰ يعتبر الزواج وضعية جماعة ، وبالتالي فهو يمثل جميع الخصائص العامة لحياة الجماعة . وبما أن الجماعة هي أكثر من مجموع حصيلة أفرادها فإن مشكلة أحد الأعضاء يجب أن تؤخذ على أساس أنها ناتجة عن علاقة الجماعة / فرد ، وهذا للدلالة على أن العلاقات بين الزوجين ليست مرتبطة فقط بخصائصهما الشخصية ولكن هي كل متفاعل مع المحيط والمعطيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وهي دلالة

⁹ عطيات فتحي ابراهيم أبو العنين " ديناميات الاختيار الزوجي و علاقته ببعض المتغيرات النفسية و الاجتماعية"، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أبريل / مايو/ يونية، 1999، ص 177 .

¹⁰ R. BASAGANA, *Eléments de psychologie sociale*, O.P.U ,2 éd, 1979, p 123.

كذلك على أن العلاقة الزوجية تعطي الحياة لطرف ثالث في العلاقة الثنائية هي "وحدة الزوجين" أو "نحن" الزوجين .

II - مفهوم الزوج *

إذا كان الزواج هو المجال الأساسي الذي ينبج فيه الأولاد وتتكون فيه الأسر، فإنه في خضم كل هذا وقبل أن يصل إلى تحقيق أحد أهدافه وهو الإنجاب فإنه المجال لخلق وحدة تجمع بين قطبي ثنائية (زوج / زوجة)، وهذا ما يؤكد البعد الذاتي والشخصي فيه، ولهذا من الخطأ تجاهل هذا "المولود" الأول و هو نحن الزوج * **Le Nous du couple** .

ونحن إذ نتحدث عن ثنائية فإننا نقصد علاقة طرف بآخر وهنا التساؤل على أي أساس قد تقوم علاقة بين رجل وامرأة يكون المقصد منها الديمومة؟ والمفارقة في هذا الموقف تكمن في دخولهما في علاقة أخذ و عطاء تستمد من الطفولة مبادئها وبعض تفاصيلها لبناء علاقة غير مسبقة (**inédite**) الغرض منها تأكيد الخروج من التبعية الوالدية من خلال بناء تفاصيل حياة جديدة تختلف عن الحياة مع الوالدين. قد يكون الدافع الأول هو الانجذاب **attraction** مثلما أشار إليه دريفيون **J.Drevillon** في كتابه "سيكولوجية

الجماعات الإنسانية¹¹ حول تفسير ميكانيزم الانجذاب بعاملين رئيسيين هما: التلقائية أو بمعنى مدى تلاؤم خصائص الآخر مع اختياراتنا ومعاييرنا (حسب اتجاه مورينو **Moreno**) أو التعزيز والتدعيم الذي يقدمه لنا الشخص الذي ننجذب إليه (حسب اتجاه نيوكومب **Newcomb**). هذان المعياران يبينان أن الانجذاب للآخر ناتج عن مدى قبولنا له (سواء كان هذا راجع لأسباب شعورية أو لاشعورية) ومدى تأثير وجوده في حياتنا كتدعيم لاتجاهاتنا وسلوكياتنا وخصائصنا العامة (أو بمعنى آخر مدى قبوله لنا). ولهذا فإن هذين المعيارين يمشيان في اتجاهات متبادلة ومتكاملة بين الطرفين. وانطلاقا من هذا يقرّ **دريفيون** أن التشابه بين فردي الزوج* يكون على مستوى الاتجاهات والقيم أكثر ما يكون على مستوى الخصائص والميول.

أما نظرية شوتز **Schutz**¹² المعروفة باسم الاتجاهات الأساسية للعلاقات

Fondamentals Interpersonals Relations بين شخصية
Orientations فإنها تسيّر في اتجاه تفاعلي ، ولا تختلف كثيرا عن نظرية

¹¹ J.Drevillon, *Psychologie des groupes humains*, Bordas, Paris, 1973.

¹² Idem, p28.

دريفيون ، وتقوم على أن الحاجات العلائقية الأساسية هي: الاحتواء أو الاتصال، المراقبة بمعنى السلطة أو الحماية، العاطفة. ويؤكد شوتر على أن نوعية العلاقة المرغوبة تتوقف على الخصائص الإيجابية، النقائص، وقلق كل طرف. والتوليفة الأكثر إيجابية هي التي تتعلق بتشابه الحاجات وتكامل العواطف. وعموما ، يلاحظ من خلال مجمل الآراء والنظريات التي سعت إلى تفسير الارتباط بين الزوجين أن هذا الأخير (أي الارتباط) هو تفعيل لحاجات نفسية أساسية في الإنسان وهي تحقيق الوجود أولا ومن ثمّ بناء هوية خاصة تنطلق من ثنائية . وإذا أمعنا النظر في تكوين الكائن البشري نلاحظ أن بدايته لم تكن فردية بل جاءت من خلال ثنائية في قمة الالتحام وهي الثنائية أم/طفل. ولهذا تظل حاجة الإنسان للآخر حاجة ضرورية وأساسية وهذا وفق ما أكدده وليام جيمس ¹³W.James في كتابه " مبادئ علم النفس " أين يقول أن الذات الاجتماعية للإنسان ناتجة عن رؤية الآخرين له واعترافهم به ، وتحديدًا يجب أن يكون الاعتراف إيجابيا، وهنا يلعب الزوج (conjoint) مثل الأم الدور الأساسي في هذا الاعتراف لأنه يعطي أساسا معنى للوجود وللذات. ويمكن

¹³ F.DeSingly, op cit, p21.

هنا أن ندرج بعض نقاط التماثل بين العلاقة الأولية أم/ طفل والعلاقة الزوجية وهذا انطلاقاً من منظورنا الخاص:

✓ العلاقة الأولية أم / طفل هي علاقة مبنية على : الالتحام/اللاهوية، والطفل يسعى للخروج من هذه العلاقة للوصول إلى تحقيق ذاته أي تكوين مفهومين منفصلين هما: الذات والآخر .

✓ العلاقة الزوجية تنطلق من المفهومين المنفصلين الذات والآخر وتتجه نحو الالتحام وكأنه عودة للعلاقة الالتحامية الأولية مع الأم أين لا تفصل الذات لوحدها .

هذا التماثل يراه البعض مرحلياً ويرتبط بالفترة الأولى لتكوين الزوج* ، وهي مرحلة الالتحام أين تتكون البذور الأولى لـ"نحن" لتليها مباشرة مرحلة الخروج من الالتحام ومراحل متتالية أخرى. وفي هذا المنظور يقول جاك وفاليري بوجول Jacques et Valérie POUJOL : "الزوج*" من المجالات التي يتفاعل فيها

الرجل والمرأة ويكوّنون معنى لوجودهم¹⁴ ، ويوضحان أن تكوين الزوج* يمر بمراحل قد تختلف بين الأزواج في بعض تفاصيلها لكنها متشابهة في خطوطها العريضة إلى حد كبير ، وهي مراحل تطورية يلعب فيها الزمن دورا أساسيا ومحوريا سواء فيما تعلق بعمر الزوجين أو مدة زواجهما، كما أنها مراحل تلزم الطرفين على تعديل وتكييف المعايير الأساسية للحياة المشتركة، وهي: الرغبة في السلطة والقوة، درجة العلاقة الحميمة، التواصل داخل وخارج الزوج*، مع المتطلبات الخاصة ووفق مشروع الزوج*.

ونظرا للمعطيات المعيشية الحالية أين ينتظر الأفراد أشياء كثيرة من الحياة الزوجية فإنه ليس من السهل أن تشبع كل هذه الحاجات أو أن تلبي كل هذه الانتظارات ،ولهذا فإن عالم الاجتماع مرمي **G.Mermet**¹⁵ يرى أن المجتمعات – الغربية خصوصا- هي بصدد التحول من مجتمعات استهلاك إلى مجتمعات مواساة ، أي أن الأفراد يعوضون بكثرة الاستهلاك الفراغ الروحي الذي يعانون منه، وقد يدفعهم هذا إلى أن يستثمروا علاقتهم الزوجية بنوع من التكييف بحثا

¹⁴ J.Poujol, V.Duval-Poujol, Les 10 clés de la vie en couple, Empreinte Temps Présent, Paris, 2003, p 3.

¹⁵ J.Poujol, V.Duval-Poujol, op cit, p 7.

عن ملء الفراغ الوجودي مما يجعل الحياة بينهم تتسم بنوع من الاختناق وربما الإحساس بالعجز عن تلبية كل مطالب الآخر. والحال لا يبدو أنه مختلف كثيرا في المجتمعات العربية الإسلامية التي انسأقت بإرادة وبغير إرادة إلى استدخال ثقافة الاستهلاك في كل مجالات الحياة ، ولم يكن الزواج بمنأى عن هذا الانسياق.

III - سيكولوجية الزواج:

الزواج مبني على ثنائية "رجل/امرأة" أي أنه قائم على الاختلاف ، والغرض من هذا الاختلاف هو أن الوصول إلى تحقيق خلافة الله في الأرض من طرف الإنسان ليس بالأمر السهل أن يمارسه جنس واحد أو نوع واحد ، إنما يتم بالتكامل والتناسق، ولذلك قسّمت الأدوار، وخلق الإنسان بفطرة الشعور بالنقص حتى يشعر بحاجته إلى الآخر. إنها العقدة التي يتبلور منها مبدأ التكامل وبالتالي وجوب التعامل بالفضل. لقد بينت الدراسات الأنثروبولوجية كيف أن الاختلافات بين الجنسين من الناحية الفيزيولوجية والسيكولوجية كان السبب في تقسيم الأدوار بينهما وفي تحديد وضعياتهما الاجتماعية.

1 - سيكولوجية المرأة : تقول دراسات بيرت **Burt** إن : " البنات يتميزن مثلا بالقدرة على الصبر والمثابرة للقيام بعمليات التحليل المطلوبة. كما يتميزن بمراعاة التفاصيل والأمور الدقيقة أثناء معالجة المواضيع، رغم أنهن يتعرضن أحيانا لإهمال بعض الخطوات المتعلقة بالتفكير للوصول إلى النتائج المرجوة. كما أنهن يتفوقن على البنين في تصور المواقف بكامل الوضوح وذلك بفضل استعانتهم بخيالهن الواضح... أما في الحياة المدرسية فقد لوحظ أن البنات أقل اهتماما من الصبيان بالجوانب العملية للأشياء، لكنهن أكثر تأثرا بالانفعالات الوجدانية كما أنهن أكثر اهتماما بالمدح والثناء أو اللوم والتوبيخ... لكن الفتاة تبدو أكثر منه (أي من الولد) قدرة على الصبر وطول الأناة والدقة في جمع الحقائق وتبويبها وتصنيفها، كما أنها أكثر قابلية لتقبل الآراء والتشبع بها واستيعابها." ¹⁶

هذه الخصائص الفيزيولوجية والبيولوجية والهرمونية جعلت من المرأة كائنا ذا خصائص سيكولوجية معينة تنعكس مباشرة على الحياة الاجتماعية والعلاقة

¹⁶م.ج. يحيوي ، خصائص المرأة والرجل وشؤون الزواج والأسرة ، دار ربحانة للنشر و التوزيع، الجزائر 2002 ، ص 18 ، 19 .

الزوجية تحديدا التي تدخل فيها المرأة في علاقة حميمة ومباشرة مع الرجل الذي يختلف عنها في التركيبة الفيزيولوجية والنفسية. مع أن البعض يرى أن هذه الخصائص السيكلوجية ليست نتيجة تركيبة بيولوجية خاصة وإنما هي نتاج تركيبة اجتماعية وموروث ثقافي وهذا ما تذهب إليه سيمون دوبوفوار **S.De Beauvoir** التي ترى أن المرأة لا تولد امرأة ، وإنما تصبح امرأة : "لا يوجد قدر بيولوجي، نفسي، اقتصادي يحدد الصورة التي تكون عليها الأنثى الإنسانية... إنه تفكير الآخرين الذي يجعل من الفرد كآخر"¹⁷. و هنا تقول دوبوفوار أن الصورة التي يرسمها الطرف الآخر عن المرأة ككائن ضعيف وهش وكموضوع أساسي للرجبة هو الذي يحدد قبلا كيفية تربية هذا الكائن على أساس الاستعداد لأن تأخذ دائما موقع الضعيف والمطيع والمتنازل، وتضيف قائلة : " في البداية يوجد عند المرأة صراع بين وجودها المستقل و"ذاتها الأخرى" ، نعلمها أنه إذا أرادت أن تكون موضع إعجاب يجب أن تبحث عن إعجاب الآخر أي أن تصبح موضوعا (ليس بمعنى التحليل النفسي) إذن يجب أن تتخلى عن استقلاليتها.... فكلما قلّت ممارستها لحريتها في فهم، واستيعاب

¹⁷ S.de Beauvoir, Le deuxième sexe II, Gallimard, paris, 1947, p1.

واكتشاف العالم الذي يحيط بها كلما نقصت الموارد التي تبحث عنها في هذا الأخير وبالتالي نقصت جرأتها في أن تفرض نفسها كشخص.¹⁸

وعلى الرغم من أن كتابات **دوبوفوار** التي عاجلت فيها إشكالية المرأة ومكانتها الاجتماعية تعد من الكتابات الكلاسيكية والقديمة نوعا ما ، إلا أنها تعكس واقعا عاشته المرأة في الدول الغربية في العصور القديمة وصولا إلى الستينات والسبعينات من القرن العشرين ، ولكن المرأة العربية لا زالت تعيش لحد الساعة مثل هذه الظواهر، وهذا ما يورده كل من **منى الصواف** و**قتيبة الجليبي** من خلال الدراسات الميدانية التي قاما بها في العديد من الدول العربية حول الصحة النفسية للمرأة العربية من خلال قولهما : "...فالمرأة لا ترى لها قيمة خاصة بذاتها إذا لم يكن هناك رجل في حياتها يعطيها هذه القيمة . بل لوحظ أكثر من ذلك أن المرأة العربية تهتم لأن تكون مقبولة من قبل الرجل قبل أن يهتمها أن تكون مقبولة من نفسها. و هي لا تستطيع أن تستسيغ طعم النجاح الذي تحققه إذا لم يكن هناك رجل في حياتها."¹⁹

¹⁸ Idem, p 30.

¹⁹ م.الصواف و ق. الجليبي، الصحة النفسية للمرأة العربية ، مؤسسة حورس الدولية للنشر و التوزيع ، الاسكندرية ، 2001 ، ص 38 ، 39 .

مثل هذه الآراء بيّنت أن المرأة عموماً والعربية خصوصاً تنشأ منذ صغرها على أساس أن جزء كبيراً من حياتها هو ملك للآخر (للأسرة ، للزوج ، للأبناء، للوالدين....) وهذا يتوافق مع طبيعتها كمصدر للإنجاب والرعاية والحنان - لكن دون أن يكون هناك انتقاص لمكانتها أو حقوقها - ولهذا فإن **علياء شكري**²⁰ أشارت في كتابها "الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة " إلى أن النساء أكثر ميلاً إلى التوافق في الزواج من الرجال ونتيجة لذلك تكون الزوجة أكثر حرصاً وانتباهاً وبقظة في إنجاز متطلبات زوجها وتحقيق رغباته في حين يقول بعض الباحثين (كولينس **Collins** وستينات **Stinnet**) أن التوافق في الزواج يكون أسهل عند الرجال لأن توقعاته بالنسبة له تكون أقل. هنا نلاحظ أن دوافع التوافق في الزواج تختلف بين الجنسين فإذا كانت المرأة تميل للتعاون والتفاهم مع زوجها فهذا من باب طبيعتها كأُنثى ومن باب أنها تعي أن دورها كزوجة يقوم أساساً على الاهتمام بزوجها وتلبية حاجاته. أما الرجل فهو بحكم تفكيره المنطقي وبعده عن الخيال فإن انتظاراته وتوقعاته من الزواج تكون

²⁰علياء شكري، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة، دار المعرفة الجامعية، 1992، ص222.

منطقية وغير مبالغ فيها، ولهذا فهو لا يحس بالصددمات أو الإحباطات في حالة ما إذا ظهرت المشاكل أو الخلافات بينه وبين زوجته.

2 - سيكولوجية الرجل: إذا تميزت المرأة بميلها للتعبير والتواصل الجسدي والعاطفي والعمل في إطار الشراكة مع الآخر فإن الرجل قد يختلف عنها بعض الشيء - طبعاً دون أن يكون لأحدهما الأفضلية على الآخر - .

واستناداً دائماً إلى دراسة بيرت فإن م.ج. يحيائي يقول: "أما الفتيان فيبدو أنهم يتميزون أكثر بالثبات في تفكيرهم وتتبع خطوات التدرج أثناء التفكير. كما يبدو أنهم أكثر انتباهاً إلى الأخطاء المحتملة في عملية التفكير، لكنهم لا يهتمون بالألفاظ المستعملة مثل البنات.... وهو (أي الذكر) يميل في تفكيره أكثر إلى الابتكار والاستقلال... وهو يبدو أقدر من البنت على إدراك أوجه التشابه بين الأشياء واكتشاف العلاقة بين الظواهر."²¹

هذه الخصائص الذكورية تبين كيف أن الرجل يكون بطبعه مغامراً، محارباً ميالاً للسلطة، ذا تفكير عملي منطقي متدرج. يحتاج للعزلة والانطواء للتفكير والبحث في مشاكله عكس المرأة التي تبحث عن المشاركة والاهتمام من الطرف

²¹ م.ج. يحيائي، مرجع سابق، ص 18 ، 19 .

الآخر، ولهذا فإن استثمار كل طرف للعلاقات الثنائية و تحديد الزوجية يختلف، فإذا كان من البديهي أنه بمرور الوقت تقل جاذبية العلاقة الرومانسية في الزواج فإن دراسة بينو **Pineo** التي أشارت إليها **علياء شكري** تبين أن " الرجال يتمكنون في السنوات المبكرة للزواج من التحرر من هذه الجاذبية أو هذا الوهم أكثر من النساء ، ويعيشون الواقع. وربما كان ذلك من الأسباب التي تخلق التباين بين الرجال و النساء مما يجعل التوافق بينهما مشكلة إلى حد كبير نظرا لاختلاف وجهات نظرهما نحو موضوعات بعينها.²²

بينما يرى الكثير من العلماء في هذه الاختلافات سببا في الخلافات بين الجنسين، كما يرون أن هذه الاختلافات هي نتاج الطبيعة لكن البعض الآخر - وعلى غرار ما قالته **سيمون دوبوفوار** - يرون أن هذه الخصائص السيكولوجية هي نتيجة تعلم أدوار اجتماعية معينة يتمرن عليها الصغير منذ طفولته حسب جنسه ، وحتى إن وجد الاختلاف فالخلاف ليس نتيجة حتمية لذلك . وهذا ما يقوله **كالفيز J.Y.Calvez** حين يقرر أن : " اختلافات الأجساد واضحة. وتجدد الإشارة إلى أنها (أي الاختلافات) بغرض الاتحاد والإنجاب (فهي

²²علياء شكري، مرجع سابق، ص222.

ليست اختلافات للتباين أو للافتراق). هناك اختلافات أخرى أقل وضوحا بين السيكولوجيات، بين السلوكيات ولكن يجب تفسيرها بطريقة صحيحة. هذا النوع من الاختلافات يكون متغيرا نسبيا فهل توجد خصائص سيكولوجية ذكورية أساسا أو أنثوية أساسا؟ و ما هو دور الفطري و المكتسب؟ علما أن ما نتصوره ظلما في حق النساء انطلاقا من فكرة التكامل بين مذكر ومؤنث متجمدين أو أزليين كل الرجال، وهم أولاد صغار تعلموا أدوارا، كل النساء و هن بنات صغيرات تعلمن بالمثل. من الصعب تحديد ما هو طبيعي في ذكورتهم و أنوثتهن...²³

إذن فالجدل قائم بين ما هو "أنثوي" وما هو "ذكوري" في سلوكيات وسيكولوجية كل من الرجل و المرأة ، ولو أن الاختلاف هو - حسب رأينا - بغرض التكامل أولا ، وهو نتيجة استعدادات ومؤهلات مرفولوجية وبيولوجية فيزيولوجية ، كما أن هذه الاستعدادات تحدد بنسبة كبيرة دور كل جنس في الحياة و بالتالي فهي تحدد طريقة تصرف وتفكير معينة لكن دون أن يكون فيها انتقاص أو تسخير ظالم لجنس في خدمة الآخر على أساس أن أحدهما أقوى

²³ J.Y.Calvez. Homme et Femme, Essais (écrit sans références) p 355.

من الآخر . هنا قد يكون الكثير من المعتقدات والأفكار الخاطئة هي التي جعلت التعلم للأدوار الاجتماعية مبني على أساس السيطرة والقوة وليس على أساس التكامل والاحترام كما أقرّه الإسلام الحنيف.

3 - سيكولوجية الزوج*:

إن تفاعل كل من المرأة والرجل في علاقة حميمة ومستمرة مثل الزواج يجعل كل واحد منهما على المحك بمعنى أن كل طرف يكون على طبيعته - مهما حاول في البداية أن يخفي أو يقنع بعض خصائصه- ولهذا فالتفاعل بين المتناقضات أو التباينات قد ينبئ بالفشل، لكن في هذه الحالة تحديدا(أي الزواج) قد يكون من أسباب النجاح .

فإذا كان توجيه المرأة في الزمان (الماضي، الحاضر والمستقبل) حيث نجد مرونة كبيرة في تنقلاتها وتفاعلها مع الآخر، هذا لا يعني أنها غير منظمة أو عشوائية ولكن تركيبة جهازها العصبي والتركيبية النفسية لديها تجعل منها مرنة وفعالة (مبدأ "العمل الكثير في وقت قصير") وهذا ما يجعل من معظم النساء قدرات على القيام بالأعمال المنزلية مهما كثرت هذه الأخيرة، لأن الإشراف على أمور البيت كلها يتطلب الاقتصاد في الوقت ولو كان الجهد كبيرا.

كما أن خاصية المرأة كشخص صبور وهادئ تهيئها فعلا لأدوارها العاطفية والتربوية كأم ويجعلها تعوض قلة صبر الرجل في أداء مهامه الأبوية. كون المرأة تتحدث كثيرا وفي أمور عديدة في نفس الوقت قد يخلق مشكل اتصال مع الرجل الذي يتسم بالتفكير الأحادي والمتأني في موضوع واحد، وعدم رغبته في التعبير عن كل ما يدور في نفسه (مما يجعله حسب رأي العديد من العلماء أكثر انفعالا وأقل تعبيراً) ، لكن قد يكون هذا الاختلاف سببا في تفادي الصراعات الزوجية ، فالزوجة لا تحتاج عموما لأكثر من أن تعبر عما في نفسها وبما أن الرجل لا يعبر عن آرائه وانفعالاته بكل سهولة فإن تفريغ أية شحنة سلبية من قبل أحد الطرفين يسهل عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية. وحتى إن احتاج الرجل للحديث فإن طبيعة المرأة كأم وقابليتها للمشاركة والمساندة للآخر يساعدها على التجاوب مع ما يقوله زوجها.

ضف إلى هذا فإن طبيعة المرأة في التفريغ المباشر لما يدور في داخلها يساعدها على تفادي المكبوتات و الترسبات السلبية التي قد تعيق التوافق النفسي لديها ، وهي من يتعرض للكثير من الضغوط سواء في بيتها أو خارجه.

إن الدراسات المقارنة بين الجنسين من حيث الخصائص البيولوجية والسيكولوجية قد بينت أن حواس المرأة أكثر حساسية من حواس الرجل خاصة فيما يتعلق بالسمع واللمس، وهما حاستان مهمتان في تأدية المرأة لدورها الأمومي، كما أن حاسة السمع تجعل المرأة حساسة لكلمات الإطراء والإعجاب والحب خاصة تلك التي تسمعها من زوجها، ولذلك من حكمة الله أن يكون التكامل بين الزوجين من حيث أن حاسة البصر قوية عند الرجل وتتأثر بكل ما هو شبق، فكلما حرصت المرأة على أن تثير إعجاب زوجها بمظهرها وجمالها كلما كان هذا دافعا لأن تسمع منه ما طاب من الكلام و بهذا تحقق مبتغاها وتشبع رغبتها في أن تسمع حلو الكلام من أقرب رجل في حياتها.

وإذا كانت طبيعة الرجل تميل إلى القيادة والسيطرة والسلطة فإن طبيعة المرأة الميلالة للتشبع بآراء الآخرين وتقبلها يجعل التوافق بينهما من حيث تحديد دور القائد والمقود من السهولة بمكان، بل ويزيد حتى من إشباع المرأة حاجتها بالإحساس بالأمن والحماية - ليس فقط من الناحية الجسدية - ف شخصية القائد غالبا هي التي توفر هذا الإحساس خاصة إذا كان من خصائص الرجل

الثبات في التصرفات وتقدير الأمور والانتباه إلى الأخطاء والتبصر بعواقب الأمور.

إن اختلاف سيكولوجية الرجل عن سيكولوجية المرأة واقع يكاد يكون بديهيا ولا يحتاج إلى إثبات ، سواء تعلقت أسباب هذا الاختلاف بالفروقات الفيزيولوجية أو الفروقات التربوية الثقافية. لكن المهم هو إدراك أن الاختلافات هي في الحقيقة صياغة أخرى للتكامل، ووجه آخر لإقرار حاجة كل طرف للآخر، ونلمس هذا بوضوح إذا انتبهنا إلى فكرة الخضوع : من يخضع لمن؟ نجد طبعاً المرأة قابلة للخضوع لسيد لأنها تحب العمل في جماعة على عكس الرجل الذي يسعى إلى السيادة والتنافس والعمل كفرد. هذا يجزّنا إلى الحديث عن طبيعة المرأة المخزّنة التي يستمد الرجل منها طاقته، فهي كتلة من المشاعر والأحاسيس و طاقة هائلة سواء كان ذلك مادّياً أو معنويّاً. فجسد المرأة في أصله مسخّر لخدمة الغير (كالثدي والرحم) ، حيث أن المرأة تبذل الجزء الأكبر من جسدها في العمليات الطبيعية، ناهيك عن العمليات الاجتماعية والنفسية، فهي خزّان للعطف والحب.

وأخيرا يمكن أن نقول أن أية علاقة ناجحة هي علاقة تسعى لاستثمار نقاط الاختلاف وتحويلها إلى نقاط ارتكازية للاتفاق والتعاون واحتواء بعض التناقضات لإنتاج طاقة تعين على الاستمرارية في الحياة الزوجية والمجتمعية والوجودية ككل. وللوصول إلى هذا التجانس يجب أن يكون هناك تمازج جسدي يكون قاعدة وركيزة للتجانس الروحي.

ولكي يتحقق هذا التمازج الجسدي من المهم أن نعود إلى البداية الأولى والأساسية التي ينطلق منها كل من المرأة والرجل في علاقتهما الزوجية، فالممارسة الجنسية بينهما تحتاج إلى توفر ظروف معينة وحيثيات خاصة لأنها معاش حميمي يتقاسمه الاثنان فيجب أن تكون له مقدمات وتهيئة خاصة بالنسبة للمرأة. هذه شروط تؤكد قدسية جسد المرأة لتستطيع المنح في جو عاطفي وروحاني مريح لأنها تحتاج لهذا الجو، وعلى الرجل فهم هذه الخصوصية لأن طبيعته الاندفاعية في الحصول على اللذة بأسرع وقت يمنعها اعتراض المرأة الطبيعي وحاجتها إلى جو نفسي وتقديم مسبق. هذا التفاوت الزمني في الحصول على اللذة بين الطرفين غالبا ما يخلق مشاكل وخلافات تؤثر على مسار العلاقة الزوجية ، لأن الجنس هو المجال الذي تحدث فيه الرغبة والنزوة و ينزوي العقل جانبا فيبدو أن

أي تنافر أو عدم اتفاق هو عدوان موجه للشخص مما يستدعي ردود أفعال عدائية هي الأخرى.

لكن الأمر في حقيقته مختلف، لأن العلاقة الجنسية تنطلق من علاقة عاطفية تمّ الانتقاء فيها مسبقاً للشخص المحبوب أي للطرف الآخر الذي يمارس معنا هذه العلاقة فالممارسة تكون مع... وليس على... وهذا ما يؤكده كالفيز في قوله: " في الجنسية الإنسانية لا توجد فقط الحاجة للآخر يجب أن ندرك العلاقة بين الحب و النداء الجنسي هذا النداء يكتمل في التجاوز الذي هو سمة الحب المتطور : المرور إلى الاختيار والانتقاء . اختيار الحب هذا يكون دائماً متجذر في النداء الأولي الأقوى منا إنه الطاقة أو الليبدو كما يسميها فرويد.²⁴ ولربما يوجد الدافع الجنسي على رأس قائمة العوامل التي تؤثر بالسلب على العلاقة بين كل من الرجل و المرأة، على الرغم من أنها علاقة انجذاب ولذة وسعادة واسترخاء، فالمفارقة العجيبة تكمن في كون الرغبة الجنسية في الآخر أكبر دليل على الإعجاب والحب والتعلق خاصة إذا كانت من طرف الرجل نحو المرأة فهي أحسن وسيلة لـ"ترسيم أنوثة" المرأة وتأكيد جمالها

²⁴ J.Y.Calvez, op cit, pp358, 359.

وجاذبيتها، إلا أنها أكبر اتهام يوجه للرجل على أنه أناني و"حيواني الرغبات" لأنه يبحث عن إشباع غريزته دون أن يفكر في مشاعر المرأة وحاجاتها العاطفية .

ولهذا غالبا ما تكون المشاكل بين الزوجين مردها عدم التوافق في هذه النقطة بالذات. ويفسر كالفير هذا بقوله: " مشكلة العلاقات بين الجنسين رغم حاجة كل واحد للآخر مردها عدم إدراك الدافع الجنسي ليس فقط كدافع ذاتي ولكن كحقيقة انتروبولوجية حيث يجب أن تلعب التربية الجنسية دورها التربوي والفلسفي وليس فقط الفيزيولوجي".²⁵

وتظل المؤسسة الزوجية هي المجال الأكبر الذي يتفاعل فيه كل من المرأة والرجل بطبيعة كبيرة بعيدا عن التكلف والتصنع أو المجاملة لأنها العلاقة الوحيدة التي تسمح لهما بالمواجهة والبحث عن إثبات الذات وإشباع الحاجات مع الأخذ في الحسبان الطرف الآخر. ولهذا فهي تعتبر المجال الأكبر الذي تظهر فيه الصراعات بين الجنسين ، ولهذا اهتمت الدراسات بتحديد اتجاه كل من الرجل والمرأة في الزواج . ومن بين النتائج المتفق عليها إلى حد ما ، ما أورده علياء

²⁵Idem, p362.

شكري من أن: "هناك مؤشرات عديدة تؤكد أن الأزواج يكونون أقل انغماسا في الزواج من الزوجات. ويظهر هذا الاختلاف بوضوح في معظم مراحل دورة الحياة الزوجية. ويختلف التقييم الموضوعي للإشباع الزوجي بشكل بسيط للغاية خلال أطوار الإنجاب وتربية الأطفال بالنسبة للذكر ، أما الزوجات فإنهن يواجهن نقصا في الإشباع الزوجي العام ونسبة عالية من المشاعر السلبية خلال هذه الأطوار نفسها....إلا أنه يلاحظ أن الزوجين يشعران بعد انتهاء جميع مراحل تربية الأطفال بزيادة حقيقية وجوهرية في الإشباع الزوجي خلال مراحل الاستيداع أو المعاش"²⁶. وهذا ما يتفق مع نظرية بوجول المذكورة أعلاه، لكنه يتعارض في نفس الوقت مع رأي جيسي برنارد **Jessy BERNARD** التي تقول: " إن العلاقة الزوجية التي تتكون مع تقدم السن يمكن أن تكون مؤشرا على الاستسلام وليس على السعادة. إن مرور سنوات من التفاعل الزوجي الذي قد يؤدي إلى التآلف بين الزوجين يمكن أن يحيل العلاقات الزوجية إلى نمط روتيني ويكون من السهل التنبؤ بأبعادها ونتائجها."²⁷

²⁶علياء شكري، مرجع سابق، ص ص 223، 224.

²⁷علياء شكري، نفس المرجع ، ص 224 .

إن اختلاف الآراء في مدى تأثير طول مدة الزواج على نوعية التفاعل بين الزوجين قد يرجع إلى مدى قناعة كل طرف بالاستثمار العاطفي والمادي في هذا المشروع الطويل المدى، ولهذا ما قد يعتبره البعض إلزاما بالالتزام مثل سيمون دوبوفوار التي تقول: "يعتبر مبدأ الزواج مخجلا ومحرجا لأنه يحول ارتباطا تلقائيا إلى حقوق وواجبات"²⁸، يراه البعض سببا في الالتزام الجدي لما له من قيمة سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع مثلما يصفه أناترلا **ANATRELLA**: "هو العلاقة المشتركة بين رجل وامرأة تكون قاعدة للرابطة الاجتماعية ويسمح بخلق الزوج* ثم الأسرة. هذا الارتباط الدينامي للمجتمع يظهر من خلال الاحتفالات التي تواكبه، من خلال التزام أسرتي كل من الزوج والزوجة..."²⁹، وهذا يبرز أن البعد الاجتماعي للزواج لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن مسبقا بارتباط عاطفي شخصي يلبي حاجات الطرفين النفسية، والبعد الاجتماعي إنما هو منظم ومقنن لهذا الارتباط.

IV – الوظيفة الاجتماعية للزواج:

²⁸ S.DeBeauvoir, op cit, pp254, 255.

²⁹ T.Anatrella, Epoux, Heureux Epoux. Essai sur le lien conjugal, Flammarion, France, 2004, p75.

1 - الزواج مؤسسة اجتماعية: كل ما تقدم بين أن الزواج علاقة تربط بين شخصين (رجل وامرأة) تربطهما جسديا ونفسيا واجتماعيا، وهذا لكونهما فردان في مجتمع يرتبطان فيه بعلاقات ويحملان منه اتجاهاتهما الفكرية والتربوية والسلوكية. ولهذا فالتأثيرات متبادلة بين المجتمع بكل مؤسساته وأعرافه وقوانينه، والزواج كمؤسسة قائمة بذاتها هي الأخرى لها قوانين ونظم وخطوط سير.

يقول مورالي دانيوس **A.Morali-Daninos**³⁰ إن الزواج كنظام ما كان ليكون لولا حاجة البشر لإيجاد توافق بين الحاجات الجنسية والعلاقات العائلية والاجتماعية، وهذا للدلالة على حاجة الإنسان الفطرية في إشباع رغباته ونزواته وفق مقتضيات الآداب العامة، وأن العلاقات بين الأفراد لا يمكن أن تضبط في ظل الإشباع النزوي غير المراقب. ويضيف قائلا: "كل مجتمع لا يضبط بصفة رسمية الحياة العاطفية والجنسية للأفراد هو مجتمع يمشي إلى الخراب".³¹ ، وهو الرأي الذي يعارضه رايش **W.Reich** الذي يرى أنه من الخطأ الاعتقاد أن

³⁰ A.Morali-Daninos, Sociologie des relations sexuelles, P.U.F, Paris, 4ed, 1973.

³¹ Idem, p71.

ضبط النزوات الجنسية لا يمكن أن يخضع للمراقبة الذاتية للفرد إذا لم يكن هناك ضبط اجتماعي راسخ في الأذهان والعقليات ، ومتجلى في الممارسات العامة . بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا و يقول أن نشوء الدولة كمؤسسة مسيرة ومراقبة يعود بالدرجة الأولى إلى الرقابة التي تفرضها على الحياة الجنسية للأفراد من خلال "القمع الجنسي" الممارس على الأطفال منذ نشأتهم الأولى ، "الإشباع التناسلي الممنوح من طرف المجتمع للأفراد منذ طفولتهم يؤدي إلى قبول اجتماعي جنسي أوتوماتيكي ... العقلية "ضد جنسية" والتي تكون ثمرة الزواج الإلزامي والأسرة السلطوية تؤدي - على المستوى الاجتماعي - إلى نتيجة معاكسة لما كانت تخطط له : عصابات، شذوذ، وميول جنسية ضد اجتماعية.³²

ونخلص إلى أنه مهما اختلفت الاتجاهات في تحديد ما إذا كانت الحياة الجنسية للأفراد تتطلب تدخلا خارجيا لضبطها وتعديلها أم لا ، إلا أن الآراء اتفقت حول أن الحياة الجنسية للإنسان - على الرغم من حميميتها وخصوصيتها - إلا أنها في علاقة مباشرة مع قيم المجتمع وتوجهاته ومعاييرها.

³² Wilhelm Reich, *L'irruption de la morale sexuelle*, p.b.p Paris, 1972, p187.

ويتجلى البعد الاجتماعي الرسمي لعقد الزواج كذلك في الإحاطة الدينية والقانونية التي يتمتع بها دون العقود الأخرى، فبالإضافة إلى التحصين الشرعي الذي أعطاه الإسلام (وباقى الديانات الأخرى) ، نلاحظ أن البعد القانوني الذي لا يترك حرية إلغاء هذا العقد لأهواء الطرفين بل يدخل فيها العديد من المعايير والشروط لتأسيس هذه الشراكة أو فضها.

أما إذا أخذنا الموضوع من الجانب الاقتصادي ، فإن المفكرين يرون أن التحولات الاقتصادية بكل تياراتها أثّرت على الزواج كعلاقة إنسانية، ففي الوقت الذي كان يؤخذ على التيار الرأسمالي والفكر الصناعي أنهما جردا الجنسية من طبيعتها الإنسانية وأخضعها لمفهوم الاستغلال للأقوى³³، نلاحظ اليوم مفهوم الاستهلاك الذي أصبح عبارة عن ثقافة طغت حتى على العلاقات الإنسانية بحيث أصبح الزوجان يستهلك بعضهما البعض كأى سلعة أخرى، وبهذا انتفى مفهوم الاستثمار العاطفي للشريك وحل محله الاستثمار المادي للعلاقة الزوجية، وبهذا تغيرت معايير الاختيار وتحديد الأهداف، وفي هذا الصدد يقول عباس محمود مكي: " إن دائرة استهلاك مشروع الزواج لا يمكن

³³A.Morali-Daninos, op.cit. p120.

أن تنتج تبادلات علائقية أسرية صحية وسليمة إذا لم تتوافق وتتطابق مع آلية صيانة لما يستهلك . فالاستهلاك استنزاف بطيء يستدعي صيانة دائمة. والصيانة الأسرية هي بطبيعة الحال مادية ومعنوية ولكنها لا يمكن إلا أن تكون دائمة.³⁴ والأبعاد التي تحدد لنا "اجتماعية" المؤسسة الزوجية هي: تعلم الأدوار (الجنسية - الزوجية - الوالدية)، والتأثيرات الإيديولوجية والمحيطية على هذه الأدوار.

١ - دور الزوج : تباعا لما سلف يمكن أن نقر أن الأدوار التي تمارس في المؤسسة الزوجية من أكثر الأدوار التي يلعبها كل من الرجل والمرأة بنوع من الاستثمار الزائد نظرا للصور والتوقعات والمفاهيم والإشباع المرتبطة بهذه الأدوار. وإذا ما نظرنا للزوج فإنه يكون مطالب أكثر بالتكفل المادي بالزوجة والأسرة عموما، ولهذا فدوره اقتصادي بالدرجة الأولى، وتحديدًا في المجتمعات الإسلامية والعربية لأن التكليف بالإنفاق هو تكليف رباني وليس اختياري.

³⁴ عباس محمود مكي، دينامية الأسرة في عصر العولمة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، 2007، ص 196 .

ولهذا يعتبر معيار العمل في اختيار الزوج من أهم المعايير، والدليل على ذلك المثال الشعبي القائل "الرجل عيبه جيبه".

إضافة إلى الدور الاقتصادي هناك الدور السلطوي في الأسرة المتمثل في اتخاذ القرارات والسهر على تطبيقها ومعاينة من لا ينفذها ، وهو دور ذو بعد تربوي أساسا حيث أن النظريات النفسية النسوية بينت أهمية دور الأب كقطب سلطوي في النمو السوي للأولاد. والحقيقة أن هذا الدور السلطوي كان يستمد مصداقيته من الدور الاقتصادي، ونظرا للتغيرات المشار إليها أعلاه والتي مست صورة الرجل والمرأة في المجتمعات الحالية فإن تأثير الدور الاقتصادي للأب أو الرجل في الأسرة انعكس كذلك على دوره السلطوي وعلى نوعية أدائه لدوره التربوي.

ومن الأسباب المؤثرة بشدة في تقليص دور الزوج في الأسرة العربية المعاصرة:

- تداعيات آثار العولمة الاقتصادية وتأثيرها على الهياكل التنظيمية للمؤسسات الاقتصادية مما أفضى إلى "بطالة بنيوية" حسب تعبير

بيضون و تحديدًا بين الرجال، و أحسن مثال على هذا ظاهرة "الخطيئة" في الجزائر، حيث لم يجدوا لهم مكانًا خاصة في المجال العام الذي يعتبر مكانهم بامتياز: "فإن البطالة لا تسلب الرجال السلطة التي توفرها لهم قدرة الإعالة على أسرهم فحسب، بل مفهومهم لذواتهم ومشاعرهم بالقيمة الذاتية."³⁵

● تداعيات العولمة الثقافية واختراق "المجال الأسري الخاص" حيث أن المكانة الجديدة التي وصلت إليها المرأة لم تسلبه فقط حصريته وظيفية الإعالة بل سلّبت سلطته حماية "نسائه" وما ينطوي ذلك من حق مراقبتهم وتقييد حركتهم وضبط جنسياتهم، والدليل على ذلك فتح المجال للحديث عن مشاكل ختان البنات والممارسات الجنسية العنيفة في الزواج... وظواهر أخرى في المحافل العامة والدولية،

³⁵ عزة شرارة بيضون، الرجولة وتغير أحوال النساء، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 2007، ص 44.

وإحداث تغيرات في قوانين الأحوال الشخصية والأسرة بما يتناسب مع الظروف الحالية.

- المقاومة الشديدة من طرف الرجال وبعض الهيئات للحركات النسائية التي حاولت فضح هذه الممارسات غير الطبيعية.
 - عامل الهجرة وتغيير الأنماط الثقافية وبالتالي الإحساس بضرورة التكيف مع المعطيات الثقافية للمجتمعات المهاجرة إليها مما يدفع الرجل العربي إلى التخلي عن بعض مبادئ السلطة الذكورية التي تربى عليها.
 - الانخراطات المتكررة لفحولة الرجال في المجتمعات العربية في تصديهم للهجمات الغربية على البلدان العربية والإسلامية : احتلال فلسطين ، مشاكل لبنان، احتلال العراق، تهديد إيران....
- والانحدار الذي عرفته مكانة الرجل في المجتمعات العربية ليس حكرا على هذه المجتمعات فحسب بل هو ظاهرة عالمية عامة تختلف في تحديد أسبابها هل هو

تحرر المرأة ، أم العامل الاقتصادي، أم بنية الذكر النفسية الراجعة للبنية الأبوسية أم أن القضية مفتعلة في أساسها، لكن في كل الحالات نلاحظ أن "أزمة الذكورة" هذه انعكست على ممارسات الرجل في حياته اليومية خاصة ما تعلق منها بالعلاقة بالمرأة ، أو بالأبناء وهذا إما من خلال العنف والعدوانية أو التراخي والانسحاب.

ب - دور الزوجة: إذا كان دور الزوج متأثراً بنسبة كبيرة بتغير مكانة المرأة فقد يكون نفس التغير الاجتماعي العالمي المرتبط بالتصنيع والعولمة وانتشار ثقافة الاستهلاك والسعي لتجاوز النظام الأبوسي هو الذي حدا بالمرأة لأن تغير من حياتها ووضعيتها وبالتالي من خصائص أدوارها. لأنه كان وراء إحساسها بالظلم والتحقير والتهميش والاضطهاد من الرجل خاصة ومن المجتمع عامة. حتى أن بيدولف **Biddulph** يقول: "عرفت الثمانينات و التسعينات (نساء ذوات قلوب صلبة) و (رجال ذوي قلوب عطوفة). هذا التطور خلق مشاكل كانت مجهولة من الأجيال السابقة."³⁶ ولعلّ معاناة المرأة الرئيسة هي في

³⁶ Steve et Sharon Biddulph, *Parents et toujours amoureux*, Traduit par D.Brotot, Marabout , Allemagne, 2003, p46.

جنسها وفي منظور الرجل لها ككائن ضعيف يجب أن يسيطر عليه، ولهذا كان الإنجاب من أهم الوظائف الفيزيولوجية والعاطفية التي تعطي هذه النقائص لكنها في هذا الدور (الدور الأمومي) تجد الكثير من المعاناة : "لكن المرأة تعاني من الكثير من ألوان الإحباط والانهيار والمآسي بسبب تحولها من امرأة فتاة إلى امرأة أم ، معاناة الأمومة وعذابها هي الوجه الآخر لعطاء الأمومة وعذوبتها، وتحصل المعاناة لأسباب بيولوجية (آلام الولادة).. وتحصل أيضا بسبب الفوضى أو الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التي ترافق أحيانا عملية الانتقال من وضعية الأنثى إلى وضعية الأم والتي تأخذ أيضا طابعا قانونيا مدنيا وغير مدني".³⁷

طبعاً الدور الإنجابي لا يقتصر على الإنجاب فقط بل تبعاته كثيرة وثقيلة وهي التربية بكل تفاصيلها وحيثياتها وهي بهذا تثقل كاهل المرأة التي تسعى لإثبات ذاتها من خلال مشقة وعناء كبيرين، فالدور الزوجي -عند المرأة العربية خصوصاً - يعتبر دوراً ثانوياً أمام الدور الأمومي لأنها في الأول تبحث عن الإشباع في وحدة ثنائية القطب زوج/زوجة وبهذا تحتاج لاعتراف القطب الثاني بقيمتها ومكانتها ، ولكن "كثيراً ما يسيء الزوج معنى الوصاية والقوامة ليفرض

³⁷عباس محمود مكي، مرجع سابق، ص 198.

قوته وجبروته فهو الحاكم بأمره في بيته وهو الذي يستطيع بكلمة واحدة أن يضع نهاية للزواج بحيث إذا شاء أرجعه ثانية.... ومع أنه أخذ في التراجع في كثير من الزيجات العصرية وعند الشباب المثقفين إلا أن العلاقة تبقى غير متكافئة وفيها تكون المرأة في وضع لا يوحي بشيء من الأمان.³⁸

ولهذا جاءت دراسات غربية تؤكد أن الرجال يحسون بالحماية في الزواج

أكثر من النساء (Eaton, Denis et coll 1973 , Srol et coll 1962 , 1980)³⁹، و هذا يرجع بنسبة كبيرة للمهام الكبيرة التي تلقى على عاتق المرأة بمجرد الزواج : الدور المزدوج في البيت وفي العمل، تربية الأولاد، عدم اعتراف المجتمع بقيمة العمل المنزلي الذي تؤديه، غياب الاتصال مع العائلة الممتدة، وضعية المأمورة والمطبعة في العلاقة الزوجية، وكذلك عدم التحضير الجيد للتأقلم مع عالم الشغل أثناء التنشئة الاجتماعية .

بعد التعرض لخصائص الأدوار الزوجية لكل من الرجل والمرأة - وعلى الرغم من أنها محددة ومقننة ولو على المستوى اللاشعوري للأفراد- والتي كانت

³⁸ م. الصواف و ق. الجلبي، مرجع سابق، ص 48 .

³⁹ M. Tousignant, *Les origines sociales et culturelles des troubles psychologiques*, P.U.F, Paris, 1ed, 1992, p148.

على قدر كبير من التحديد والاستقلالية في البنيات الاجتماعية التقليدية ، أصبحت الآن تتميز بكثير من الغموض والتداخل حتى أنها أنتجت معاشات صراعية بين الطرفين ، في حين أن كل واحد يحاول بالوسائل المتاحة أن يؤدي دوره على أكمل وجه. وهذا ما يحملنا على القول أن العوامل التي تحدد الأدوار الزوجية تتعلق أساسا بالوسائل والإمكانات المتاحة لأحد الطرفين ، وهي عموما : المال، الجنس، الاستجابة العاطفية من الشريك والمهارات.

خاتمة

أخيرا يمكن أن نقول أن العوامل الفيزيولوجية والسيكولوجية لكل من الرجل والمرأة تعمل على تأكيد حاجة كل واحد للآخر، وعلى أن الزواج هو العلاقة أو الإطار الأمثل لتلبية هذه الحاجات ، ولهذا فإن الاتجاهات ذات الطابع الفردي التي أصبح يتسم بها هذا الأخير لا تخرج عن الطبيعة الإنسانية ، بل بالعكس تعطي للزواج مفهومه الصحيح وهو أن يكون السياق الذي تتجلى فيه الشئانية زوج / زوجة كأفراد و كأشخاص يؤكدون بنية هوياتهم الشخصية من خلال هذه الشئانية. لكن هذا لا ينفي أن تكون هذه الرابطة خاضعة لمعايير المجتمع و لقيم الجماعة لأنها لا يمكن لها أن تبنى أو تتطور بمعزل عنها فهي تستمد

شرعيتها من قبول الآخرين لها وحرصهم على احترامها والمحافظة عليها. ولربما يكون المنظور الإسلامي للعلاقة الزوجية أحسن مثال على مدى وحدود "اجتماعية" هذه العلاقة لأنه يؤكد على أنها مبنية على أساس روح التلاحم بين الزوجين للسكينة والمودة ، حتى أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ " الحب " للحديث عن هذه العلاقة لأنه لم يحددها في معاشات شخصية مغلقة ولهذا لم يربطها بانتظارات آنية، كما أن حياة المسلم هي حياة مفتوحة على المجتمع فالفرد لا يعيش لتحقيق مطالب شخصية فقط ، بل همه الأكبر هو سعادة ورفاهية المجتمع الكبير لأنه يؤمن أشد الإيمان أن صلاح حاله من صلاح مجتمعه، ولهذا فهو لا يحصر كل آماله في علاقة فردية بشريك وهذا ما يجعل للعلاقة الزوجية متنفسا وحماية لكيثونتها ومصيرها. ولعلنا لا نخطئ إذا اتفقنا مع من يقول : " إن الحب شيء والزواج شيء آخر. الحب هو علاقة خاصة جدا لا تخضع للتقنين ولا تطلب الإذن ، أما الزواج فهو عقد اجتماعي له مستلزماته الموضوعية العامة والخاصة وإن كان يهدف إلى إعطاء التوعية والفاعلية والعقلانية للحب." ⁴⁰

⁴⁰ عباس محمود مكي، مرجع سابق، ص 198

قائمة المصادر و المراجع :

المراجع العربية:

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - إحسان الأمين، المرأة، أزمة الهوية و تحديات المستقبل، دار الهادي، بيروت، 2001 .
- 3 - الزمخشري، لسان العرب، الجزء 4.
- 4 - بولحية نور الدين ، العشرة الزوجية ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2006 .
- 5- عباس محمود مكي، دينامية الأسرة في عصر العولمة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2007.
- 6 - عزة شرارة بيضون، الرجولة و تغير أحوال النساء، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1، 2007.
- 7 -عطيات فتحي إبراهيم أبو العينين " ديناميات الاختيار الزوجي و علاقته ببعض المتغيرات النفسية و الاجتماعية"، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، أبريل / مايو/ يونية، 1999.
- 8 -علياء شكري، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة، دار المعرفة الجامعية، 1992.

- 9 - محمود السيد أبو ليل، علاقة القيم الدينية بإنتاجية العامل الصناعي، الكتاب السنوي في التربية و علم النفس، المجلد السابع، دار الثقافة للطباعة و النشر، 1981 .
- 10 - منى الصواف و قتيبة الجلبي، الصحة النفسية للمرأة العربية ، مؤسسة حورس الدولية للنشر و التوزيع ، الإسكندرية ، 2001 .
- 11 - يحيى محمد جمال ، خصائص المرأة و الرجل و شؤون الزواج والأسرة ، دار ربحانة للنشر و التوزيع، الجزائر 2002 .
- المراجع الأجنبية :

- 12 - ANATRELLA Tony, Epoux,Heureux Epoux. Essai sur le lien conjugal,Flammarion,France,2004.
- 13 - BASAGANA .R, Eléments de psychologie sociale, O.P.U ,2 éd, 1979 .
- 14 - BIDULPH Steve et Shaaron,Parents et toujours amoureux, Traduit par D.Brotot,Marabout , Allemagne,2003.
- 15 -CALVEZ .J.Y, Homme et Femme , Essais (écrit sans références).
- 16 -DE BEAUVOIR Simone, Le deuxième sexe II, Gallimard, paris, 1947.
- 17 - DE SINGLY François,Le soi,le couple et la famille,Pocket,France,2005.
- 18 - DREVILLON Jean, Psychologie des groupes humains, Bordas, Paris, 1973.

- 19 – MORALI-DANINOS Antony, Sociologie des relations sexuelles, P.U.F, Paris, 4ed, 1973.
- 20 - POUJOL Jack, DUVAL-POUJOL Valérie, Les 10 clés de la vie en couple, Empreinte Temps Présent, Paris, 2003.
- 21 -REICH Wilhelm, L'irruption de la morale sexuelle, p.b.p Paris, 1972.
- 22 –TORDJMAN Gilbert, La maladie conjugale, Marabout, France, 1976.
- 23 -TOUSIGNANT.M, Les origines sociales et culturelles des troubles psychologiques, P.U.F, Paris, 1ed, 1992.